

بوح الأب الشاعر وتمثلات العاطفة في الشعر الشعبي المعاصر، دراسة في قصيدة: وراك يا بنتي؟ للشاعر

عبدالله بن زوين



This work is licensed under a
Creative Commons Attribution-
NonCommercial 4.0
International License.

بشرى محمد محيل الحويطات

نشر إلكترونيًا بتاريخ: ١٩ مايو ٢٠٢٦م

الملخص

يخلص البحث إلى أن: القصيدة نموذج ينم عن صدق عاطفي، كما تسعى لفهم العلاقة بين الأبوة والتكوين النفسي، والمنظم الأول للمشاعر، في مقابل وعي ضمني بمشاشة هذا الأمان، ومحدوديته، أمام حتمية الفقد التي تعمي القلوب وتُخرنمها.

* المقدمة

تُعد علاقة الابن بوالديه واحدة من أهم ركائز الثقافة العربية والبني القيمة فيها، حيث تقوم عليها بنية الأسرة، إذ تبلور من خلالها القيم، وتشكل التنشئة الاجتماعية التي تسهم في بناء شخصية الفرد، وذلك لما فيها من أبعاد وجدانية عميقة.

وفي هذا السياق، لم تخلُ الذاكرة العربية من صدق الأبوة وتجلياتها، لذلك لم تكن الأبوة يوماً مسمى لصلة القرابة فقط، وكأما أخذت منحني آخر تشبه العقد العاطفي، الذي لم يُكتب على الورق، لكنّه يلزم الأب أن يكون الظل من شمس الظهيرة، والجفن حين تمب الزواجر لتؤذي العين، وكأن الابن قطعة من الروح تسير خارج الجسد.

يتناول البحث قصيدة "عبدالله بن زوين وأدمع ابنته المنهمرة"، بوصفها نموذجاً دالاً على تداخل البعد الأبوي مع الأبعاد النفسية، والفلسفية في الشعر الشعبي، كما هدف هذا البحث للكشف عن آليات تمثيل الحزن، وتنظيمه في خطاب أبوي، وذلك من خلال التحليل اللغوي والدلالي، والذي يستند على بعض المفاهيم النفسية.

قام البحث على التحليل التأويلي، متتبعاً حُطى البنية الخطابية للنص، وتحولاته من الاحتواء العاطفي، إلى إعادة رسم الحزن وتأثيره، حتى يصل إلى إزالة الإبهام عن الفقد، وكأنه بهذا يقول: إن الفقد الحقيقي تجربة قائمة وإن كانت مؤجلة.

وقد أظهر تحليل الأبيات أن الشاعر لم يكتفِ بالتعبير عن العاطفة، بل مارس دوراً أعمق، وهو الدور الإرشادي، الذي أعاد من خلاله، تشكيل وعي الابنة بالحزن، ضمن توازن دقيق بين التعاطف والتوجيه الصادق.

تأصلت هذه العلاقة في الوجدان العربي والإنساني؛ كيف لا؟ وهو يقرأ كلام الله تعالى في محكم تنزيله، حين قرن بهجة الوجود في الأبناء، قائلاً: " { الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا } (١) {، وعلى الرغم من أن نعمة المال والبون هي من النعم التي زوالها محتوم، إلا أننا لا ننكر إنها من النعم التي تُدخل المسرة على الفؤاد المكلوم.

ومما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: { إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له } (٢)، فالعمل الذي ينقطع بعد الموت، إن أحسن الغرس ثبت أثره، ومن أعظم الغراس قلب ابن صالح، يحمل من والديه القيم والذكر الحسن، وما إن فنى الجسد بقي الابن امتداداً لذلك العمل، يجيي أثر والديه في الدعاء والسيرة، وكأن أعمالهم الصالحة ما زالت الروح فيها.

ولأن الشعر ديوان العرب ورمّة الشعور، فقد انعكس هذا كله في قصائدهم، كأنه التزام أخلاقي وحماية وجودية تتجاوز حدود العاطفة المجردة، ويتجلى هذا الترابط في النماذج الشعرية فصيحة كانت أم نبطية، لذلك تجد صورة هذا الأب الذي يذكر ابنه في عدة صور في الشعر، فتجده الحارس، والمرّبّ الغارس فيه الصبر والأنفة.

ومن القصائد الفصيحة التي تترك في وجدانك ما إن قرأتها أثراً عظيماً، قصيدة للشاعر حطّان ابن المعلّى*، في قصيدة طويلة تذكر الباحثة منها ما يلي: -

لولا بُنَيَاتُ كَرْعِبِ الْفَطَا زُودَنَّ مِنْ بَعْضِ إِلَى بَعْضِ
 لكان لي مُضْطَرَّبٌ وَسِعَ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطَّوْلِ وَالْعَرْضِ
 وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
 لو هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْعَمَضِ (٣)

تبرز مكانة الأبناء في هذه القصيدة في غير موضع، حيث شبههم مرة على أهمّ الأكبَاد، أي أنهم قطع من قلوبهم تمشي على الأرض، مبالغة منه في تصوير شدة التعلق بهم، والخوف عليهم، فلو أصاب أحدهم مكروهاً، لكان كهبوب الريح له، كما أن عينيه لما غفت لحظة من القلق والخوف عليه؛ حيث إن ألم الأبناء يقلقه ويؤرقه.

وعندما أراد الحُطَيْبَةُ استعطاف الخليفة عمر بن الخطاب، وذلك بعد سجنه، بسبب هجائه للزريقان ابن بدر، لجأ لتصوير حال أطفاله الجياع، والضعف الذي حلّ بهم فور غيابه، مما أثار التعاطف في نفس الخليفة، وسارع في إطلاق سراحه، حيث قال: -

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بَدِي مَرِيحٍ حُمُرِ الْخَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرٍ
 أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي فَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاعْفِرْ عَلَيكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ (٤)

ولأن الحُطَيْبَةَ كان على وعي عميق بمكانة الأبناء في الوجدان الإنساني، استعار صورة الأفراح الجائعة، التي تنتظر معيها، مستثمراً هذا التصوير ليعمّق استنارة الرحمة في نفس عمر بن الخطاب، وفي معاناة أطفاله حجة إنسانية تدعو إلى العفو.

وما هذه النماذج الشعرية إلا قلائل من بحر فاض به الفصيح، تتعدد صورها وألفاظها، لكنّها تجتمع على دلالة

(٢) الحطيبية: (ديوان الحُطَيْبَةَ)، ش: (ابن السكيت)، د: (مفيد محمد قمبحة)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٣، ط(١)، ص ١٠٧-١٠٨

(١) سورة الكهف، آية ٤٦
 (٢) أبو زكريا: (يحيى بن شرف النوويّ الدمشقي)، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥، ص ٢٩٣
 (١) أحمد سويلم: (ديوان الفتى العربي، قصائد من الماضي)، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧، ط(١)، ٥٤

واحدة، تعكس أثر حب الأبناء وتحلياته في وجدان الشاعر، وتُشكّل التجربة الشعورية، التي تدفع الشاعر ليقوم بإحداث ثورة شعورية تصف لنا حبه وشوقه لأبنائه وخوفه عليهم ومواساته لهم.

ومثلما أبدع لنا الشعر الفصيح صوراً عديدة، لم يقف الشعر الشعبيّ في معزل، فتغنّى هو الآخر في صور استقفاها من واقعه الذي عاشه، وفي هذا البحث وقع اختيار الباحثة على واحدة من القصائد التي تُعدُّ من عيون الشعر الشعبيّ التي تُفضي نتائجها إلى خدمة هذا البحث، والتي تعود لقائلها عبدالله بن زويين رحمه الله.

أولاً: التعريف بالشاعر: -

عبدالله بن زويين بن بطي المعمرى الحرّبيّ ت: (١٧٠٩-٣٧٠٩هـ)، ولد عام (١٣٧٧.٧.١هـ)، نشأ والشعر بين راحتيه؛ فهو ابن لشاعر شعره سبق اسمه، فهو القائل: -
الصمت حكمة لو بقلبك لواهب من خوف يسمع واحدٍ ويجكي به
ترى هروج الناس صفق المخاليب اللي خطا والي طعونه عطية
لُقب عبدالله بن زويين بداهية الشعر، حيث يتسم شعره بالعدوية، وقوة الصورة، وعمق التأثير، وجزالة اللفظ والمعنى، وعلى الرغم من طول القصيدة التي يكتبها إلا أنها لا تفقد قوتها؛ حيث إنّه يجعل القارئ في تركيز مستمر، ينتظر الصورة التي تلي الأولى، وفي كل صورة يستقيها من واقعة يضيف إليها لمسته الشاعرية التي تضيف رونقاً خاصاً للقصيدة، فتجعل المستمع في حالة من الشوق لسماع الكثير والكثير من شعره. (١)

ثانياً: مناسبة القصيدة: -

مما شاع عن هذه القصيدة، أنها قيلت عند سفر ابن زويين رحمه الله في رحلة علاجية، وقد لاحظ أدمع ابنته تنهمر؛ خوفاً عليه من مكروه يصيبه، لكن في تتبعك للقصيدة تلحظ أن مضمونها لا يتناسق مع هذه الرواية، وهذا ما أكد عليه الدكتور مساعد المعمرى* في لقاء مصور، حيث قال: إنّه حدث لبس في تحديد مناسبة هذه القصيدة، غير أنّ الحقيقة تكمن في أن ابن زويين رحمه الله، قالها بعد أن رأى دموع ابنته تنهمر؛ إثر رحيلها من مسكنهم في الحرس الوطني إلى منزلها في اليرموك، فكانت تبكي فقد صديقتها، فأضنى قلبه هذا المشهد وأعياه، مما دفعه لنسخ هذه القصيدة.

ثالثاً: تحليل القصيدة: -

وراك يا بنتي من الصبح تبكين؟ ترى دموع العين ماهي خفيّه
تبكين وأبكيصي صغارٍ برين وأنا بعد دنيتها هاشميه
مير البكا والحزن ماهو بما اللحين فرقا بنات الناس ماهي قضيه
إليا خذيت عشرة ايام تنسين انتي وهي كل يسليه حيه
لكن اليا حطو على راسي الطين هاك النهار البيا بكيتي عليه
ومدام أنا وأنت على الارض حيين يا سعد عينك لو بكيتي شويّه
والله لا نسيك الزعل لين ترضين وامهد لك الدنيا فجوج فضيه
واحماك مثل حماية الجفن للعين وكلش فداك البيا بغيّتي شريه
يفداك ما شافت عيونك من الزين لوان متر الثوب من خمس ميه
لواني اسجل على ذمتي دين زود على ما يملكته يديه

(١)

تنهض القصيدة بسؤال لم يكن عابراً، أو استفهامياً بريئاً، وكأنه يقول إن الألم لا يُخفى بل يُقرأ ويُرى، حيث أصبح في سؤاله أقرب للاحتواء النفسي؛ وكأنه فتح لابنته مساحة

(١) ديوان: ٥٠ قصيدة مكتوبة للشاعر عبدالله بن زويين رحمه الله، ص ١٠

(١) انظر: ٥٠ قصيدة مكتوبة للشاعر عبدالله بن زويين رحمه الله

*الدكتور مساعد المعمرى: شاعر وراي، وهو ذو قرابة من الشاعر حيث إنّه خال الدكتور، وعضو هيئة تدريس في جامعة المجمعة.

آمنة للتعبير، فلم يقمع بكاء عينيها، بل اعترف وثمن شعورها، وأخبرها أنه يرى ويفهم شعورها.

ما زال الشاعر يمارس سلطته في احتوائها، حتى أبكت من معها، فالطفل حين يبكي بكاءه نابع من صدق شعور، ولصدق شعورها يبكي الأطفال حزنها، فأصبح يتخير ما لذ وطاب من معانٍ، لئسكن مر ما ذاقته.

وفي البيت الذي يليه لم ينكر الشاعر ألمها بل أعاد تأطيره، حيث أعاد تفسير الشعور، وفي سلوكه هذا منع تضخم الشعور لديها، لتعلم أن هذا الحزن ما هو إلا عابر فلا تسمحى بأن يكون نهائياً، مما يعكس شعور الفهم العميق عند الشاعر، ففراق صديقتك تلك ما هو إلا حزن ينتهي وإن كان في عينيك هم أزلّي.

يعود الشاعر لتخفيف حر ما تونس في قوله: "إليا خذيت عشرة ايام تنسين، انتي وهي كل يسليه حيه"، الإنسان بطبيعته لا يبقى سجين حزنه، فالزمن يعيد له التوازن، وإن لم يتخطى هذا الحزن، سيتعايش معه حتى يألفه، وكأن الزمن أداة تعافٍ مُتسرية.

تظهر ذروة الصدق المعربي في القصيدة، بعد أن قال: "لكن إليا حطو على راسي الطين، هاك النهار إليا بكيتي عليه"، يذكرها في الفقد الحقيقي، والألم الأكبر موته، ففي هذا النهار ستعلمين يقيناً أن فراق من أحبك بصدق ودون شروط، هو فقدك الحقيقي وأن صديقتك تُعوض بأخرى، وأن الأيام قد تجمعك بها يوماً، لكن غيابي بعد موتي كيف لك تحمله، وكأن الشاعر يبذر في حناياها وعي مبكر بمشاشة الأمان والاستمرار، وفي هذا الموضوع توجد مفارقة نفسية عميقة، فيعيش الشاعر صراعاً داخلياً؛ وذلك لأنه يريد طمأننتها، لكنّه يعي عجزه التام في حمايتها من الفقد.

ها هو يعدها قائلاً: مادام أنا وأنت ما زلنا أحياء نرزق، ابك قليلاً وفرغي حزنك أمام عيني، وأنا هنا لك سند يشعر بألمك دون بوح، يكف دمة واحدة وسأكون حين يغيب الجميع، درع حامٍ لك، وهذه الدنيا التي تملأها معارك طاحنة سأكون مقاتلاً شجاعاً حتى تصبح أمام خطواتك المتعثرة أرض مستوية، تمنعك من السقوط مرةً أخرى، وفرح بك في كل خطوة جديدة، وكأن الشاعر بهذا قد رسم حدوداً لبكائها، حيث سمح لها بالتعبير بمكنون صدرها لكن بقدر، وكأنه كان على معرفة بمصطلح " التنظيم السلوكي"، فلا كبت ولا انفلات، فبقوله لها ابك بوعي وتحت مظلة أماني ما دمت حياً.

عاد الشاعر أباً في البيت الذي يليه، حيث قال: "أحميك مثل حماية الجفن للعين"، الجفن لا يفكر في حماية العين بل يفعلها غريزياً، حيث يوصلنا إلى أن الأب هو المأوى النفسي، وفي وجوده يصبح تهديد العالم وقلقه أقل، وهذا ما يُعرف بالأمان النفسي، والحماية في هذا البيت كانت أعمق مما تتضح؛ فلم يكن مبتدلاً أو متكلفاً، بل هي استجابة تلقائية مستمرة.

أما في الجانب المادي يتكبد الشاعر عناء راحتها، لكن بفرح وسرور وكأنه حول الدين رمزاً للفداء والتضحية، وفي هذا البيت يتضح لنا حب غير مشروط ممزوج فيه صدق العاطفة، فها هو يعوضها عن أي نقص، حتى وإن فاق طاقته، وكان داخله يقول: إذا شعرت بحزن يوماً كان التقصير مني، وكأنه لا يعلم كم من معنى كريم قد رسمته أبياته.

وفي مُحصلة هذا النص، لم يقف الشعر عند حدود المواسة، بل مارس دوراً أعمق، حيث أعاد تشكيل الوعي في مفاهيم الفقد عند ابنته، ومنحها نموذجاً أولياً لكيفية فهم الوجد واحتوائه، لم يقلل من دموعها، لكنّه وضعها في مكانها

المناسب، كأنه يعلمها أن ليست كل المشاعر سواء، وأن نهاية القصة ستصبح في قادم الأيام ومرور الزمن ذكرى عابرة.

غير أن رياح التوتر تهب كل ما تذكر هذا الأمان الذي في داخله مؤقت، يطمئن قلبها وفي الوقت ذاته، يلمح لها أنّها في لحظة ما ستفقد هذا الاحتواء، هنا تتقاطع أواصر أبوته الصادقة مع المشاشة الإنسانية، فالبرغم من أنه مصدر الأمان، ومن أشد الوجوهات صدقاً، هو أكثر ما يُحشى فقده. مثلت القصيدة صورة التعلق الآمن في أنقى حالاته، فوجود الأب لا يقيك من الحزن أو يزيله، لكن يجعله محتماً، قابلاً للفهم والعبور، وفي المقابل لا يعني مجرد فقد شخص بل فقد منظم داخلي، تستعير منه القوة، وفي هذا لا تعود القصيدة حديثاً عن حزن عابر، بل عن تربية القلب كيف يحزن، دون أن ينكسر، وكيف يتكئ في صغره على كتف صادقة.

* الخاتمة

في ختام هذه القراءة التحليلية، يتبدى أن قصيدة ابن زوين، لم تكن أحياناً شعبيّة قيلت في لحظة عاطفية عابرة، بل هي أقرب لأن تكون وثيقة إنسانية، تبين عمق الرابطة الأبوية وتجلياتها النفسية، حيث استطاع الشاعر ببراعته الفطرية أن يحول دموع ابنته من موقف عفوي إلى درس وجودي، انتقل فيه من دور المواسي، إلى المرئي والمنظم العاطفي، معيداً صياغة مفهوم الحزن عند ابنته الصغيرة.

تكشف هذه الدراسة البسيطة كيف تحولت القصيدة إلى مأوى نفسي، حيث تشكلت صورة الأب مع صورة الجفن الذي يحمي العين بصدق دون تكلف، وبغريزة تلقائية، ليصدق بصوته وفكره: إن الأبوة عقد عاطفي غير مكتوب، يلزم الأب بأن يكون الدرع والظل، وتكمن في القصيدة مفارقة موجعة؛ فعلى الرغم من الوعود التي فاض

الشاعر بما لتسكين لوعة ابنته، إلا أنه موقن بمشاشة الإنسان أمام حتمية الفقد الكبرى.

قدم ابن زوين نموذجاً فريداً في مفهوم التعلق الآمن، ليبرهن على أنّ دور الأب لا يقتصر على إزالة الحزن والألم، بل في جعله قابل للعبور، وفي نهاية الحديث، تبقى هذه القصيدة مرآة تعكس أنبل صور التضحية؛ فهو يُعرض نفسه للموت على أن تكون الدنيا كالفجوج الفضية، أمام خطواتها، حتى وإن كان مدركاً في قرارة نفسه أنّه غرس زائل لا محالة، لكن أثره باق في قلب ابنةٍ صالحة تحمل ذكره، وفي صلواتها دعوات له لا تنقطع.

يبقى المبدع مبدعاً وإن خالف هواك في التعبير، تلمح صدق شعور الأب في بوحه، الذي يبقى صادقاً في وجه الغياب الموجع، وفي التربية الأنيقة للقلب، فحتى وإن حزن يحزن بوعي، ويجب بلا شروط، وتتكئ روحه على كتف صادق لا تنحني إلا لخالقها.

وفي الختام لا يسع الباحثة إلا أن تقول رحم الله ابن زوين رحمه تسع السموات والأرض، اللهم كما كان جفنًا يحمي ابنته ومن حوله من كدر الأيام، فاجعل له من رحمتك جفنًا يقيه حر نارك وعذابك، وكما مهّد الدنيا لخطوات ابنته، فمهّد له طريقاً للجنة، واجبر يا الله قلب أهله جبراً يتعجب منه أهل السموات والأرض.

* المراجع

الخطيئة: (ديوان الخطيئة)، ش: (ابن السكيت)، د: (مفيد محمد قميحة)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٣، ط(١)، ص ١٠٧. ١٠٨

أحمد سويلم: (ديوان الفتى العربي، قصائد من الماضي)، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧، ط(١)، ٥٤

ديوان: ٥٠ قصيدة مكتوبة للشاعر عبدالله بن زوين رحمه الله.

أبو زكريا: (يحيى بن شرف النوويّ الدمشقيّ)، مؤسسة المعارف
للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥، ص ٢٩٣